



الملتقى الثقافي التربوي الثالث

حلم تحقق على ارض الوطن

نادية فهد

والسورية. ما هي إلا ساعات وتتضمن المجموعة الثانية من مخيمات سوريا الى الحافلة التي وصلت مع ساعات الشروق الأولى إلى الحدود الأردنية، حيث الانتظار كان طويلاً، والإرهاق والقلق سيّدا الموقف الآن، أخبار عن رفض ختم جوازات السفر، استنفار لإجراء اتصالات "رفيعة المستوى" هنا وصلوات لإتمام الأمور هناك، لم تجد نفعاً بعد. جاءت الأوامر بصعود جميع الركاب الى الحافلة والعودة أدراجها الى بيروت. الحظ كان حليفاً لشخصين فقط ممن يحملون جواز سفر لبناني الى جانب وثيقة سفرهما "الفلسطينية". إنها حتماً سخرية القدر! تخيلوا "لبنانيان" يحصلان على ختم يخولهما المرور من الأردن باتجاه فلسطين، وفلسطينيون حرّموا منه ليعودوا باتجاه لبنان. الأمر دفع بأحدهم للتضرع للسماء ومناجاتها "لمرة واحدة فقط، لمرة واحدة، كن بصفّتي يا رب، كن الى جانبنا". أجواء من الخيبة والذهول تخيمان على الجميع، المساعي "رفيعة المستوى" في أوج استنفارها. ست ساعات على الحدود الأردنية مرت كالدهر. أخيراً يشفع القدر لنا.

مستعجلة لأعضاء من فرقة "الكوفية" ولجموعة من شباب المخيمات في لبنان وآخرين من سوريا والأردن تحت مظلة المشاركة في مؤتمر الاستثمار، تخولهم البقاء عشرة أيام في فلسطين وزيارة أي بقعة فيها.

هكذا، بدأ المشاركون بالتوافد من مختلف مخيمات لبنان الى نقطة التجمع والانطلاق من مقر السفارة الفلسطينية في بيروت مساء الاثنين ٢١-٥-٢٠١٠، حيث سادت أجواء من الترقب والإرباك واللاصبر بينهم في انتظار الإذعان لساعة الصفر لانطلاق الحافلة باتجاه فلسطين، وسط توصيات الأهل والأصدقاء لهم بإحضار "ترايات من البلاد" ودعوات لتقبيل الأرض نيابة عنهم ونقل سلاماتهم لأهلها.

تطلق الحافلة أخيراً، لا أحد مستوعب لحقيقة الأمر بعد. "هل نحن فعلاً ذاهبون الى فلسطين؟" "بالتبع لن يسمحوا لنا بالدخول"، "سيختلفون أي حجة لمنعنا من الوصول إليها"، "لماذا يبدو هذا الحلم حقيقياً لهذه الدرجة؟" هواجس تبادلها الشباب في الحافلة سرعان ما تبددت مع عبور النقاط الحدودية اللبنانية

كادت حورية الفار تفقد الأمل بتمكنها وفرقتها "الكوفية" من تقديم لوحات تراثية راقصة على أرض الوطن. فإثر فوز فرقتهما بالمرتبة الأولى في مسابقة أفضل فرقة للرقص الشعبي ضمن فعاليات القدس عاصمة الثقافة العربية العام المنصرم، وُعدت برحلة الى فلسطين لتقدم خلالها الفرقة عروضاً من على خشبة القصر الثقافي في رام الله، إلا أن موعد الرحلة المفترضة إلى فلسطين ألغي وتأجل أكثر من مرة حتى بات تصديق إمكانية تحقيقه أمراً مستحيلًا، إلى حين تلقيها بعد طول صبر وانتظار نبأ يجزم بموعد السفر مطلع الشهر الحالي. إذ شفع انعقاد مؤتمر الاستثمار الدولي الذي عقد في بيت لحم، لوزارة الثقافة الفلسطينية وللجنة الوطنية للتربية والثقافة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية "لتضرباً بعصفورين بحجر"! فمن جهة تفي بالوعد الذي قطع لفرقة "الكوفية" بتقديم عروض في أرض الوطن، ومن جهة ثانية تتمكن من عقد الملتقى الثقافي التربوي الثالث الذي كان من المفترض انعقاده في الأردن، في فلسطين. هكذا، تم استصدار تصاريح



تنتفح أسارير وجوه الشبان والشابات في الحافلة، النبأ أعاد لهم الروح. بعد إتمام المعاملات، يعلو التصفيق والغناء "وين ع رام الله... وين ع رام الله.. ولفي يا مسافر وين ع رام الله". تتابع الحافلة سيرها باتجاه فلسطين، يكتمل الوفد بانضمام المجموعة المتبقية من الفلسطينيين في الأردن. "أصبحنا نقرب من فلسطين أكثر فأكثر"، "حلم العودة أصبح قاب قوسين أو أدنى من التحقق أخيرا". الآن حان تبديل الحافلة، يهّم الجميع بنقل أمتعتهم للحافلة الجديدة المتجهة الى جسر الملك حسين النقطة الأكثر قربا لفلسطين. الصمت والذهول يخيمن على أجواء الحافلة، بدأت فلسطين تتكشف رويدا رويدا، كفاتنة تكشف النقاب عن وجهها تدريجيا، كشمس يغسل النسيم قرصها من غيم غيبّتها، ومعها بدأت دموع الفرح تغسل ملامح الإرهاق عن الوجوه. ما هي إلا دقائق تفصلنا عن فلسطيننا. دقائق تحولت الى ساعات بين تبديل للحافلات وتسلم لتصاريح مليئة بأحرف عبرية تبحث فيها عن شيء تفهمه لتجد عبارة "السلطة الوطنية الفلسطينية" مترتبة أعلاه، لتتملك رغبة بالانفجار باكيا، لكونك تحمل ورقة غبية بأذن لك فيها المحتل لوطنك بالدخول إليه! سرعان ما تترد الفكرة من رأسك، فلا

وقت للدراما الآن، لن تسمح للاحتلال أن ينعص عليك فرحة تعميدك بنسيم فلسطينك، بأشعة شمسها، بذرات متناثرة من ترابها. تدوم نشوتك لفترة قصيرة، فالاحتلال وجهه بشع أبدا، ويأبى إلا ان يذكرك بمدى بشاعته. تصل الى "نقطة" تحت سيطرته. وللحظة، ولولا

بدأت فلسطين تتكشف رويدا رويدا، كفاتنة تكشف النقاب عن وجهها تدريجيا، كشمس يغسل النسيم قرصها من كومة غيم غيبّتها، ومعها بدأت دموع الفرح تغسل ملامح الإرهاق عن الوجوه.

الاحتلال. تمرّر لهم التصريح مرغما، تتعمد بإظهار اشمئزازك للابتسامات المزيفة على وجوههم ولعبارات الترحيب المصطنعة "أخلا وسخلا" (أهلا وسهلا). يسألك أحدهم "من وين انت؟"، تنظر اليه، تجيب: "من عكا". يعيد تكرار السؤال بتعجب: "من وين؟"، تعيد على مسامعه ببطء وبصوت أعلى "من.. عكا"، فأنت رغما عن أنفه من عكا وعائد إليها. تتابع سيرك حيث جهاز الكشف عن المعادن، كثيرون كانوا مستعدين سلفا إذ خلعوا أحذيتهم وأحزمتهم ووضعوا هواتهم جانبا. هكذا، وبعد الانتهاء وركوبك حافلة جديدة تتوجه بك الى أريحا، تشعر بأنك بتّ بفلسطين أخيرا حيث لافتة "فلسطين ترحب بكم" تنصدر الشارع الذي تمر به... تتنفس الصعداء.

بتنا الآن في بلدية أريحا، وسرعان ما تناسى الكل ارهاقه. بين بكاء وغناء وفرح وتقبيل للتراب، امتزج الحلم مع الواقع. حلم اللجوء وواقع العودة. الآن فعليا أنت لست بلاجىء. أنت بكل بساطة على أرض وطنك وتحت سماء وطنك، تحت نجومه وقمره، وبين شعبك وأهلك، ورجال أمنك. من هناك، من مكتب الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، تنتقل الى رام الله حيث تقضي ليلتك الأولى في فلسطينك.

يتبع



على الرغم من انقضاء زهاء الأسبوع على عودتهم من أرض الوطن، ما زال الوفد الشبابي المشارك في الملتقى الثقافي التربوي الفلسطيني الثالث الذي انعقد للمرة الأولى في فلسطين، غير مستوعب وغير مصدق لحقيقة ذهابهم الى أرض الوطن وعودتهم الى مخيمات اللجوء. فالأيام العشرة التي قضوها هناك تحت سماء فلسطين التي جمعتهم بباقي أجزاء الوطن من مخيمات سوريا والأردن والضفة والداخل وبعض الدول الأوروبية والعربية، مرّت كلمح البصر. فالتجربة أجمل وأروع من أن تصدق.

ليتها كانت عودة بلا رجعة

نادية فهد

الشولي: نستحق الحياة على أرض فلسطين الفار: نحن جسم تجزأ ثم التأم برحلة العودة للوطن

الأكثر معاناة، وتتوجت هذه المشاعر في الاحتفال الذي أحيطه فرقتا "الكوفية" و"نهوند" المقدسية في القصر الثقافي في رام الله حيث اختلطت الدموع وتوحدت المشاعر.

أما اللحظة الأكثر تأثراً فكانت بزيارة القدس، "انت بلحظات أمام هذه الهالة.. أمام عاصمة السماء.. امام عروس العواصم مدينة الأديان التي ما كنت تحلم في يوم من الأيام بزيارتها. تشعر بحضرتها بشعور لم تشعره من قبل ولا يمكن وصفه بالكلمات"، واصفا حالة إغماء حصلت أمام عظمة المشهد، وقرار البعض المشي حفاة طوال تواجدهم على أرض القدس، وبكاء آخرين بشكل شبه هستيري.

أما أكثر ما صدمهم، فكان جدار الفصل العنصري الذي يخنق الضفة ويحولها لسجن كبير، والحواجز والمستوطنات التي تقطع أوصال الضفة، "أدركنا ان هذه المستوطنات ما هي إلا كالفقاع التي تزيلها الأمواج... فهي ستزول بإرادة الشعب في مقاومة الاحتلال. فوجودها وجود سياسي وليس جغرافياً لاستخدامها كبند للضغط على الجانب الفلسطيني في المفاوضات"، مستطرداً عن زيارته لبلعين حيث المقاومة الشعبية ضد جدار الفصل العنصري وحيث أبهى أشكال الإصرار والصمود والتحدى

مسؤولين معنيين لحل الإشكالات القائمة. ويسرد عن القلق الذي كان سائداً حول كيفية التعامل مع لحظة المواجهة مع الاحتلال، إلا ان تلك اللحظة "وضعتنا في موقع المواجهة مع العدو من الند الى الند، بحيث لم يكن هناك وجود لأي رهبة أو خوف منه"، لدرجة أن إحدى الفتيات الصغيرات بادرت بالقول للمجندين الصهاينة "ما تختمولي عل باسبورت، بديش أفريجو اياه" بكل ثقة وعنفوان، مستذكرا لحظة الوصول الى أريحا حيث "كل المعاناة ذهبت، إذ كان لنا استقبال مميز على المستويين الشعبي والرسمي"، متابعا القول: "منذ وصولنا الى فلسطين شعرنا بالتححرر وهذا الشعور بالتححرر جعلنا ننظر لكل الأمور بصورة جميلة ووردية، فلم نعد نشعر باللجوء. بتنا نعيش في وطننا وبين شعبنا وشعرنا بالانتماء وباكتمال انسانيتنا، وهذا الشعور نفتقده في اللجوء كوننا بشرا مع وقف التنفيذ".

ومن المواقف المؤثرة بحسب الشولي، هو امتلاك شعبنا للكثير من الاعتزاز والكرامة، والشوق للمم شمل كامل الشعب الفلسطيني في العالم، الأمر الذي عكس نفسه تعاطفا وإقبالا من الناس لاستضافتهم والتحدث معهم والاستماع اليهم، لا بل معاملتهم معاملة خاصة كونهم من لاجئي لبنان

وليحدثنا أكثر عن حلاوة تجربة العودة الى الوطن، ومرارة الانتزاع منه وفراقه، كان لمجلة "القدس" لقاء مع رئيس اتحاد الفنانين الفلسطينيين في لبنان محمد الشولي ومسؤولة فرقة "الكوفية" حورية الفار، للاطلاع أكثر على تفاصيل رحلتهم. يحاول الشولي استرداد شريط ذكريات الأيام العشرة التي قضاها في ربوع الوطن، ليستحضر أكثرها تأثيراً بالنسبة له وللوفد الذي تولى مسؤوليته والمؤلف من ٣٤ شابا وشابة من بينهم أطفال. يبدأ بالصعوبات التي تعرضوا لها على الحدود الأردنية ولحظة تبليغهم بالصعود الى الحافلة والعودة من حيث أتوا، واصفا لحظات الألم والخيبة التي ما لبثت أن تحولت الى بهجة بعد إجراء اتصالات مع





من الأمور الأخرى التي لامستها وجود معاناة طبقية في المجتمع الفلسطيني تماما كما في الشتات فهناك طبقة "المرتاحين والميسورين" وهناك طبقة "المعترين".

وهي تتفق والشولي بأن اللحظة الأكثر تأثيرا هي لحظة الدخول الى القدس ومشاهدة المسجد الأقصى وقبة الصخرة تعكس بهاء لون شمس كبرتقالة يافاوية لترسم حولها هالة مقدسة. "شعرت بقلبي ينبض كما للمرة الأولى، شعرت بحنان أم تلد مولودها الأول"، تقول. "عندما تزلجنا من الحافلة الى جبل الزيتون، شيء غريب تملكنا وحثنا للإسراع بخطواتنا، وهذا ما حدث، لم نعد نشعر بخطى أقدامنا، شيء أقوى منا سيطر علينا وسرع من خطواتنا، كما يحدث في تشييع شهيد ما، تشعر وكأن التابوت يطفو ليصل سريعا الى الجنة". حينها يدرك المرء بأن فلسطين تستحق كل قطرة دماء، "ونحن مستعدون للنضال من اجلها مهما طال الزمن"، راجية لو كان بإمكانها المكوث هناك ولو في خيمة "هناك مناطق واسعة وفارغة في الضفة، لنعيش فيها. نحن موافقون... على الأقل سنكون في فلسطين"، مشددة على ضرورة التمسك بحق العودة، ناقلة رسالة الداخل الى الشتات بأن اللقاء قريب وأن العودة الى فلسطين محررة أقرب بكثير.

حتى هذه اللحظة، تبقى حورية ككثيرين ممن تباركوا برؤية فلسطين، غير مصدقين أنهم كانوا فعلا هناك على أرض الوطن. فضل يدينون بالشكر والامتنان فيه للجنة الوطنية للتربية والثقافة وعلى رأسها الأستاذ إسماعيل تلاوي، وجنود آخرون مجهولون جعلوا الواقع أجمل بكثير من الحلم. حلم سيتحقق طالما أن "البلاد بعدها ما نسيت ومشتاقا لأهلها".

أنها ستزور أرض الوطن، وأنها وفرقتها "الكوفية" الى جانب مجموعة من الشباب سيتمكنون من دخول فلسطين من بوابة مؤتمر الاستثمار الدولي الذي عقد في حينه ببيت لحم. أتلج الخبر قلبها، فيعد طول انتظار وترقب جاءها الخبر، واعدا بإيها بلقاء شقيقها الذي لم تره أيضا منذ عقود. الخبر أيضا لم يكن بالحسبان بالنسبة لأعضاء الفرقة التي لم ينل كامل أعضائها التصاريح اللازمة، ومنهم من لم يملك وثيقة سفر ومنهم من كانت وثائق سفرهم منتهية الصلاحية والوقت ضيق لا يسمح لاستصدار وثائق جديدة. هكذا انطلقت الفرقة لتكون خير سفير للمخيمات المتمسكة بتراتها وإرثها الشعبي الذي يحاول العدو سرقة ونسبه إليه زورا.

لم تصدق حورية ان حلمها بات حقيقة إلا عندما وطأت قدمها الأردن، فهي واحدة من الاثني اللذين حصلا على تصريح للمرور بالاراضي الأردنية لكونها تحمل جواز سفر لبناني. عندها فقط شعرت انها تعيش حلم العودة، أفكار كثيرة بدأت تراودها كيف ستلتقي وجها لوجه مع جنود الاحتلال؟ كيف ستدخل تحت العلم الاسرائيلي الى فلسطين؟ "قررت وقتها ان اترك كل تلك الأفكار وأعيش كل لحظة بلحظتها، كنا نشعر بأن كل دقيقة تؤخرنا وتبقينا بعيدين عن فلسطين كاساعات". ومع الاقتراب من فلسطين تبين أن الحلم بفلسطين شيء، وواقع أنك تشاهدها أمامك شيء آخر، "فلسطين كانت أكثر من توقعاتنا، كان هناك ذهول بما رأيناه، فلسطين جنة على الأرض".

تردد ما قاله بعض أعضاء فرقتها، عن شعورهم بشيء غريب يتحرك داخلهم، شعور غريب شعور بالحنان تجاه الأرض. هذه الأرض التي أكلوا من ثمرها أخيرا وشربوا من مائها، لمسوا ترابها، تذوقوها، عاشوها واختبروها بحواسهم كلها. شعروا بالانتماء اليها، برابط قوي معها كأنهم ما غادروها أبدا، "شعرنا برابط قوي، بالانتماء كأننا نعرف الناس الذين التقينا بهم منذ دهر وأكثر... نحن جسم تجزأ ثم التأم برحلة العودة للوطن".

كان أكثر ما صدمها هو المعابر والحواجز، "لطالما كنا نسمع عن معبر قلنديا، لكننا اختبرنا ولولايوم واحد ما يعانیه شعبنا الفلسطيني بشكل يومي في تحركاته وتقلاته، واختبرنا كيف يقوم جنود الاحتلال بالمستحيل لإذلاله وهو صاحب الحق".

والبطولة تترجم أسبوعيا في وجه الاحتلال. هناك حيث الأهالي والوفد بكوفياتهم غنوا على أنغام "القربة" أغاني ثورية ورقصوا على أنغامها ديكات فلسطينية، تحدوا خلالها "الجيب" العسكري الإسرائيلي المتأهب على تلة قريبة مقابلة.

وكان في لقاء الرئيس الفلسطيني محمود عباس والوفد فرصة لنقل ما شعر به الوفد بالتححرر من وصف "لاجئ" ولوعشرة أيام، ولنقل رسالة باسم اللاجئيين مفادها "تنفيذ وصية الرئيس الشهيد ياسر عرفات بتحريرنا الى الأبد من كلمة لاجئ وان تكون عودة اللاجئيين الى الوطن من أولويات النضال". وحملوا بدورهم لأهالي اللجوء في المخيمات بأن اللقاء قريب على أرض الوطن، فقليل من الصبر وسيتحقق الحلم الفلسطيني بإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس وعودة اللاجئيين.

ويرى الشولي بعقد الملتقى الثقافي التربوي الثالث في فلسطين "خطوة سيتبعها خطوات زادت من إصرارنا للنضال من أجل العودة، وجعلتنا أكثر تمسكا به، فيها زاد أملنا وقناعتنا بأن العودة محتمة".

وعند الرحيل، كانت اللحظة الأصعب والتي لم يجد كلمات لوصفها إلا من خلال تشبيه الحالة بانتزاع طفل عن حضن أمه، موضعا "شعرنا بالانهيار والضعف.. كنا نغادر وطننا لنعود لاجئيين من جديد... كثير من الوفد رفض الصعود الى الحافلة ومنهم فتاة ظلت متمسكة بشجرة رافضة العودة". لحظات بدا الجميع عاجزا عن ضبط عواطفه، "بكينا كالأطفال". خاتما بالقول أننا شعب يستحق الحياة وبأن الحياة التي نستحقها نستحقها على أرض فلسطين، موجها التحية والشكر لطاقم اللجنة الوطنية للثقافة والتربية والعلوم.

"ليتها كانت عودة بلا رجعة"

بعد تحديد عدة مواعيد للرحلة الى فلسطين والوفاء بالوعد الذي حصلت عليه وفرقتها "الكوفية" لفوزهم بالجائزة الأولى في مسابقة أفضل فرقة رقص تراثية ضمن احتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية، قطعت حورية الفار مسؤولة فرقة "الكوفية" الأمل بإمكانية الوصول الى فلسطين، معلّقة انها كانت تشعر حينها "انه حتى الحلم استكثروه علينا، حتى الحلم خسارة فينا". إلا أن حرقتها هذه تبددت حين أكدوا لها